المفتي المهـــاجر

للاستاذ توفيق محمد الشاوى

« فلسطين ! وما فلسطين ؟

هي الوطن ، إذا كان الوطن أن نعيش فيه سادة أحراراً .

وهي الدين ، إذا كان الدين أن نذود عنه أعزة كراماً .

وهي الأمل ، إذا كان الأمل هو كل ما يملك النفس ويحركها .

وهي الحلم ، إذا كان الحلم هو كل ما يشغل القلب ويجذبه مهما كانت حجب الزمان والمكان

فلسطين ! هي ذلك التاريخ الحافل الذي حفظته الدنيا ، فلن يمحى بعد ذلك !

هي ذلك المجد الخالد الذي صنعه الآباء ، فلن يحيا بدونه الأبناء !

هي ذلك التراث المجيد الذي يملكنا ونملكه ، هو لنا الماضي ، ونحن له المستقبل !

نعم ! وهي هي التي دعتني إلى الفراق حين فُرِضَ الفراق ، وتدعوني إلى اللقاء حيثما يجب اللقاء ... »

لعل هذه هي الخواطر التي شغلت دائماً هذه النفس الهادئة القوية ، وملأت هذا القلب الطاهر العميق ، وإنك لتستطيع أن تقرأها واضحة ناطقة في هذا الوجه الباسم المطمئن ، وهاتين العينين الصافيتين الهادئتين ، عيني المفتي مفتي فلسطين الكبير !

إنك لتراها واضحة لأنها تصدر عن فكرة قوية هادئة ، تعبر عن إيمان صادق عميق ، وثقة ثابتة لا تتزعزع ، تلك هي العقيدة الإسلامية الخالدة التي تمثلت في تاريخنا الحافل ، ولا يمكن أن يجحدها جاحد ، وخاصة إذا تمثلت في رجل عظيم !

فكرة تكسب الرجل قوته وعظمته التي عجزت أمامها « السياسة » الإنجليزية الماكرة ، وأفلست حيالها كل المكايد الاستعمارية الخادعة ... أخرجته من فلسطين إلى لبنان ، ومن لبنان إلى العراق ، ثم منها إلى إيران ، ومن إيران إلى تركيا فأوربا ، وها هي أوربا قد قلبت رأساً على عقب ، وهو هو ، تطورت الأحداث ، وهو ثابت لم يتزعزع بإيمانه القوي الثابت ، وفكرته التي خرج بها من بلاده ، والتي تجسمها هذه الكلمة التي لا تبرح خاطره ولا تغادر قلبه « فلسطين » !

« من أجلها استوى عنده الشرق والغرب والقرب والبعد !

ومن أجلها خرج عن المال والولد ، وطابت له الهجرة ، ولكن إلى حين ! من أجلها دار هذه الدورة التاريخية من الشرق إلى الغرب ، مخترقاً قلب هذه القارة الطاغية الجبارة « أوربا » في سبيل تلك الغاية الواحدة « فلسطين »!

وإنه ليقيم في باريس ، في ضيافة فرنسا ، في تلك الفيلا الهادئة المنعزلة قرب « السين » ، فهلا يستريح ؟ كلا ! وأي نجم في السماء يستريح ؟ كلها تدور كما دار هو صابراً ثابتاً ، من برج إلى برج ، في هدوء وإشراق ، لا تقف في منتصف الطريق ، لا بد من أن تتم الدورة ، لا بد من « العودة » إلى هذه النقطة التي بدأ منها ، والتي اتجه إليها دائماً بروحه وقلبه ، والتي يعيش من أجلها . . فلسطين أنشودته الخالدة :

فلسطين يا فلسطين أنت لي دنيا ودين !

الإنجليز يطاردون ، واليهود يترصدون ، والفرنسيون مترددون مراقبون ، ولكنه هادئ باسم ، لأنه مؤمن ولأنه واثق : مؤمن بالحق ، وواثق بالله ... مؤمن بأنه يجب أن يعود ، وواثق بأنه سيعود !

وما ذا يكلفه ذلك ؟ إنه لا يملك شيئاً إلا روحه ، وهي رخيصة في سبيل غايته ، لقد عرضها على الموت في كل آن ، منذ أن بدأ جهاده في سبيل الحق وهو يبحث عن الموت ويطلبه في سبيل بلاده وعقيدته ، ولكن الموت عنيد لا يطلب من يطلبه ... فليجاهد حتى الموت !

وكيف يعود ؟ لا بد من إذن الحكومة الفرنسية ، ورضاء الحكومة الإنجليزية وطلب الحكومات العربية ، ولا بد من إجراءات دبلوماسية تطول ، وعقبات سياسية لا سبيل إلى تذليلها الآن !

كلا ! دعوا كل هذا ، واقرأوا هذا الوجه الهادئ الواثق ، هناك ابتسامة عريضة تكاد ترسم قوساً تحت هذا الأنف العربي الأشم ، إنه سيعود ، إنه لا يفصله عن غايته إلا مثل هذا القوس ، الطريق من باريس إلى الشام لن يكلفه أكثر من هذه الابتسامة المؤمنة الهادئة ، ما دام أنه يجب أن يعود ، فلا بد أن يعود ، ولا يمكن أن يبقى تحت رحمة السياسة والدبلوماسية ، وخير له أن يخاطر ليعرض روحه على الموت مرة أخرى في سبيل غايته ، فإنه سيبلغ بلا شك إحدى الحسنيين ! دين آبائه وأجداده من قبل ! فليعد مخاطراً مجازفاً كما خرج مخاطراً مجازفاً ، سواء رضيت انجلترا أو لم ترض ، وسواء أذنت فرنسا أو لم تأذن ... لا بد من العودة ... لا بد منها ... فلسطين ... الشام ... وقد كان !

توفيق محمد الشاوى
مدرس بكلية الحقوق بجامعة فؤاد